السخرية في اشعار بديع الزمان الهمداني وحافظ الشيرازي

دراسة تحليلية تطبيقية

طالب الدكتوراه حسن قمري

جامعه آزاد الاسلاميه ـ مدينه كاشمر ـ إيران

Hasanghamari88@yahoo.com

الدكتور محمد شايگان مهر

استاذ مساعد ـ جامعه آزاد الاسلاميه ـ مدينه كاشمر ـ ايران (الكاتب المسؤول)

SHaygan47@gmail.com

الدكتور محمد جعفري

استاذ مساعد ـ جامعه آزاد الاسلاميه ـ مدينه كاشمر ـ إيران

D.m.jafari92@gmail.com

Comic in Hamadani and Hafiz Shirazi's Exquisite Poems - Analytical and Practical Study

Hassan Ghamari

PhD student, Islamic Azad University, Kashmar Branch, Kashmar , Iran

Dr. Mohammad Shayegan Mehr

Assistant Professor of Islamic Azad University, Kashmar Branch, Kashmar, Iran (Author)

Dr. Mohammad Jafari

Assistant Professor of Islamic Azad University, Kashmar Branch, Kashmar , Iran

الملّخص:-

إن السخرية هي أحد أهم أدوات الفنانين فيما يخص الكلام كي يوصلوا قصدهم بصورة غير مستقيمة ليبينوا ما يمر حولهم من اوضاع العالم. إن إستخدام السخرية لدي الشعراء والكتاب الفرس يختلف بشدته بالازمنة المختلفة، لهذا فإن هذا المقال يتبع نهجاً تطبيقياً كي يبين بإسلوب توصيفي وتحليلي، السخرية في اشعار الأديبين. ما نتج عن التحقيق هو إنه مع أن الشاعران قد ولدا ببيئات مختلفة، العربية والفارسية منهما، وكان لهما توجهات مختلفة ألا أن هنالك رؤي متناظرة في إستخدامهما للسخرية، ونري هذا التناظر من خلال موارد كتبيين التظاهر بالتدّين والظلم والطبقية والفقر والجوع، حيث أنها أبرز ما تعرضت للسخرية بأشعار الأديبين. يتبع هذا المقال نهجاً أساسياً في التقارب الموضوعي الشديد بين سخرية الشاعران ويحلل ما أتي بمضمونها ويستنتج أن السخرية بشعر الإثنان تستهدف الحكام الظالمين بصورة خاصة وقد ناضل الشاعران من خلال استخدام السخرية باشعارهم.

الكلمات المفتاحية: السخرية، مضامين، الشعر العربي، الشعر الفارسي، بديع الزمان الهمداني، حافظ الشيرازي.

Abstract:-

"Humor" is one of the most important tools for artists, especially in the verbal arts, to present the word indirectly and express themes related to the world around them. The use of humor among the poets and writers of Persian literature in different periods has been intense and weak. Therefore, the present study aims to study and analyze the concepts of humor in the works of these two literatures through a comparative and descriptive-analytical approach. However, the findings of the study show that these two authors, despite being in two different linguistic domains - Arabic and Persian - have different tendencies, but in their satirical works, similar approaches are found. Concepts such as: False pretense, injustice and inequality, poverty and hunger are the most prominent concepts in the works of two literary comedians. The present study, assuming that the themes of exquisite humor and Hafiz are very close to each other, has been analyzed and the findings of this study suggest that the positions of the two poets, mainly oppressive rulers, can be pointed out. They have opposed the language of humor in order to fight in their poetry.

Keywords: humor, themes, Arabic poetry, Persian poetry, Badiezaman Hamadani, Hafez Shirazi.

المقدمة:ـ

خلال تاريخ الثقافة والأدب العالمي للملل والنحل سواء ممن تأثروا بشكل مباشر من الثقافة والعلوم والحضارة الإغريقية كالغربيين، أو ممن تأثر بشكل غير مباشر. حيث إنه دمج هذه الثقافة بما يملكه اصلاً! نراهم كلهم قد نصبوا إهتماماً خاصاً لإسلوبين أدبيين أكثر من غيرهما، حيث أن التراجيديا أو الحزن والألم يتجلي من خلال الرثاء، والكوميديا تظهر من خلال الهجاء، والهزل والسخرية والمطايبة والطرائف والمزاح. بالزمرة الثانية قد نري أن السخرية لها حصة الأسد وقد وليت اهتماماً أكثر من باقي الموارد.

إن السخرية تعني الإستهزاء أو التمسخر أو إظهار العيوب، وادّبياً تطلق على مؤلفات تظهر النقص والعيوب بإسلوب تلميحي وقد وضع النقاد ثلاث نظريات بهذا الباب: نظرية التفوق، ونظرية الإسترخاء، ونظرية عدم التناغم. إستطاع الإنسان من خلال هذا الفن الظريف أن يقوم بإفشاء مواضيع بمراحل تاريخية حساسة لم يكن باستطاعته البوح بها بما لديه بشكل جدي وطبيعي وبهذه الطريقة، من إستهدفتهم السخرية لم يظهروا رد فعل أشد بطشاً مما كانوا عليه. أن السخرية أسلوب فني يبدل الدمعة بالبسمة وألالم بالفرح، ألا إن هذا الفن يتعلق بمهارة الفنان الذي يمكنه إخراج هذه البسمة المطمورة بألم كل الحياة ويستبدل الدمعة والألم بها، حيث أن الرّوح لن تحفظ طراوتها ونضارتها وستجر لليأس والسلبية إن لم يحصل هذا. إستطاع الإنسان من خلال هذا الأسلوب الظريف أن يبين ما يجول بقلبه بأحلك المراحل التاريخية بلا خوف، وأن لا يغضب من يقصدهم بكلامه ولا يكثر بطشهم. إن السخرية مرآة الظروف الاجتماعية والسياسية للأزمنة كما هي مرآة لنفسية الفنان الساخر وكأنه من خلال نظرته وإختيار إطار لغته وكلامه يبين ظروف زمانه بلغة ساخرة ينتقدها. لهذا ولفهم السخرية بزمننا علينا أن نلقي نظرة على ما سلف منها.

خلفية المقال

لقد تم تأليف مقالات عدة فيما خص السخرية بأشعار بديع الزمان، لكننا كنا غافلين عن موضوع السخرية في أشعار حافظ الشيرازي ولم نقم بمقارنتهما ابداً وهنا نشير لبعض ما تناول موضوع بحثنا:

"ايـن كيميـاي هسـتي" أو جـوهر الوجـود، عبـارةعن مجموعـة مقـالات وهـوامش مـن الأستاذ محمدرضا شفيعي كدكني عن حافظ، وهنا نري مقالاً بموضوع السخرية في أشعار حافظ. إن المؤلف يقدم تعريفاً عن السخرية بهذا المقال هو:"صورة فنية لإجتماع النقيضين". وبحسب رأيه أن هذا التعريف أدق وأكمل تعريف لهذا الفن. "شعر بي دروغ ، شعر بي نقاب" أو شعر بلا كذب ورياء وهو من الدكتور عبدالحسين زرين كوب. كتاب يتناول بحوثاً في فنون الشعر وأساليب النقد التطبيقي للشعر الفارسي. والمؤلف يتناول السخرية خلال فصلان، اولهما "المعني والمقصود" وهو موجز، والثاني "الشعر العامي والاستعراضي". "از كوچه رندان" أو العبور من زقاق أهل التعفف، كتاب من الدكتور عبدالحسين زرين كوب يتناول خلاله شرحاً لحياة حافظ وافكاره ويبحث ويحلل بشكل كلي من ظروف زمانه الإجتماعية ويشرح بشكل كامل سبب لجوء حافظ للسخرية.

كان الأستاذ بديع الزمان ابن فارس بالأصل، ألا أن تطوره السريع والمبهر يرجع لموهبته العجيبة وذاكرته المميزة التي ابهرت معاصريه. لقد ذهب إلى مدينة ري بعام ٣٨٠ ليتلمذ على يد صاحب بن عباد بعدما أكمل تعليمه، فتم الإختبارات كي يثبت لمعلمه أنه أديب لامع. ثم إلتقي هناك بهجائيين سكرة الهاشمي وإبن الحجاج الأحنف الكعبري وابو دلف الخزرجي الرحّال المعروف. يبدو أن شخصية ابوالفتح الإسكندري وهو بطل مقاماته قد استوحيت منه. قال الثعالبي أن بديع الزمان كان يروي أشعار ابودلف وقد روي احد أشعاره على لسان أحد ابطاله (ويحك هذا الزمان زور/ فلا يغرنك الغرور ـ ((المقامة القريضيه)).

"مكتب حافظ" هو كتاب من منوچهر مرتضوي يعرفه الكاتب على إنه مقدمة لمعرفة حافظ. أحد ألمواضيع اللازمة لفهم أسلوب حافظ هواللحن المعاند المستهزيء للخواجة. يقسم الكاتب كلمات ومصطلحات حافظ كالكلمات المخالفة بعرف حافظ مثل الصوفي و الجبة والكلمات التي تستخدم بصورة عادية تارة وتارة بإستهزاء كالحلال والحرام والخراب وما شابه ذلك. لبهاء الدّين الخرمشاهي وبكتاب"حافظ حافظه ي ماست" أو حافظ هو ذاكرتنا، مقال عن السخرية في شعر حافظ. هو يتناول تعاريف عن السخرية بالبداية ويكمل إلى أن يشكل تحليل تعريف الأستاذ كدكني للسخرية القسم الأعظم من مقاله. وللكاتب نفسه كتاب "ذهن و زبان حافظ" أو ذهنية ولسان حافظ، وهو يضم مقالات عن معرفة

حافظ وأحد مقالاته "نظرة على السخرية لدي حافظ" ومن أهم المواضيع التي تم تناولها بهذا المقال: مقارنة نيتشه بحافظ، إطلاق تسميات جديدة كألمناضل السياسي على حافظ واهداف السخرية بديوان حافظ.

يقوم بديع الزمان بوصف واقعي لخلق وطباع معاصريه، إذ إنه ومن خلال أشعاره يبدو كأنه يستعرض مشهداً بشكل سريع عن الجوانب القبيحة، فينشر الوعي بلا نصح وموعظة. إن واقعية بديع الزمان مشهودة بتصميم المشاهد والبشر في مقاماته وكلامه ببعض الأحيان، حيث أنه يكشف في ((المقامة الدينار)) عن المصطلحات البذيئة بين الحثالة والمشردين بذاك الزمان، أو في ((المقامة الرصافية)) يتناول حياة اللصوص وأهل الطرب والغجر وفي ((المقامة الشامية)) يشير للوقائح الجنسية. مع أن لأغلب المقامات شروع وختام -و يرى الراوي فيها البطل بحلة جديدة يعرفها بعد برهة- ألا أن طراوة المشاهد والحوادث والشخصيات الفرعية محفوظة. مثلاً في شرح الوضع المضحك الذي ابتليت به قرية بسيطة في ((المقامة البغدادية)) أ وصف حمام مع المدلكين في((المقامة الحلوانية)) حيث أنه وصف بديع. في القسم الثاني من هذه المقام، ابوالفتح الإسكندري طبيب حجامة كثيرالكلام ويستذكر المدلك من قصة الف ليلة وليلة، فتراه يعلو ويهبط بالأحاديث البطولية ويستعرض ما يعرفه من الأمثال والحكم واصول الكلام وهو ما يجذب القارئ لأسلوب بديع الزمان السحري. لكن ابوالفتح الإسكندري غالباً ما يظهر كماكر يسحب المال من جيوب الحضور بسلاطة لسانه كي يصرفها على ملذاته. هذه صورة ساخرة يقدمها الكاتب من اديب ذاك الزمان، إذ يجب عليه أن يكون ماكراً خادعاً بالبلاط وان يتلون يومياً بلون وأن يغتنم أقل الفرص كي يتطور بمجاله ويحصل قوّت يومه. لهذا نري ابو الفتح الاسكندري تارة كفارس محارب ((المقامة الفرارية)) ((المقامة الملوكية)) أو متسول بعصا ((المقامة الاسدية)) أو محارب متطوع يجمع المساعدات لجهاد الكفار((المقامة القزوينية)) وفي مقام آخر نراه مطرباً بحانة وامام مسجد ((الخمرية)) ولازال اديباً ناقداً واستاذاً بالشعر استاد ((المقامة القريضية)) وهو ايضاً يبدي رأيه بالنثر بجلسة ادبية وما أن يطالبوه بالمزيد حتى يطالبهم بالمزيد ايضاً ((المقامة الجاحظية)) وتارة هو سارق لمنديل الشيطان ((المقامة الابليسية)) أو كاتب أدعية ((المقامة الحرزية)) و ((المقامة الاصفهانية)).

لقد استطاع بديع الزمان أن يصف بأفضل شكل أفكار بخيل بكل ما تحمله الكلمة من معنى في ((المقامة الوصية)) وذلك قبل موليير لكن تحفته هي ((المقامة المضيرية)) التي يصف فيها اعمال بائع جديد بالسوق ويتناول تفاصيل بيته وحياته بشكل دقيق وأستطاع أن يظهر خصال الجماعة من خلال الفرد. يبدو أن القاضي حميدالدين البلخي وهو أفضل كاتب للمقامات يعتبر هذه المقامة من أفضل ما كتب بديع الزمان والذي كتب اقتباساً منها مقامة ((السكباجية)) البديعة. لقد تمت ترجمة بعض مقامات بديع الزمان للغات عدة.

تعريف السخرية

((إن السخرية كلام بتلميح وإشارة وتعريض)) (رامبوري، غياث الدّين محمد، غياث اللغات، في شرح السخرية)

إن السخرية ادبياً هي أسلوب متهكم مستهزئ لتبيين العيوب والنواقص والقبائح وفساد الفرد والمجتمع وهي تعادل كلمة ((satire)) وهذه الكلمة مشتقة من ((satira)) و((satura)) اللاتينية وهو ظرف مليء بالفواكه المشكلة حيث كانوا يهدونه لأحد ارباب الزراعة (داد، سيما، معجم المصطلحات الأدبية،شرح السخرية) أو: ((السخرية اسلوب خاص للبيان الشديد العقائدي والاجتماعي والسياسي وطريقة لإفشاء الحقائق المرة والكريهة التي نشأت من الفساد والتي يتعذر البوح بها لكونها ممنوعة من قبل الفرد والمجتمع حيث إنها تؤطر بالإستهزاء والبسمة فيتم اللجوء لها لنفي الفساد ودحضة)) (بهزادي اندوهجردي، ١٣٨٧: ٥٦)

الخواجة حافظ الشيرازي

الخواجة حافظ الشيرازي (الخواجه شمس الدين محمد حافظ الشيرازي) ولد بعام ٧٢٧ للهجرة والذي يصادف القرن ال١٤ للميلاد وقد لقب بلسان الغيب. اغلب اشعاره غزلية و وتعرف بغزليات حافظ او فال حافظ. اسلوبه وطريقة كلامه يميلان للخواجو الكرماني اذ أن الأخير ترك إنطباعاً كبيراً على الشعراء من بعده. تمت ترجمة اشعاره للغات اوروبية بالقرون ال١٨ و ال١٩ و تم تداول اسمه بالمحافل الأدبية الغربية وكل عام بالعشرين من الشهر السابع الفارسي يتم اقامة حفل كبير عند ضريحه وبحضور كبار المحققين من الداخل والخارج.

بديع الزمان الهمداني:

كان الأستاذ بديع الزمان ابن فارس بالأصل ألا أن تطوره السريع والمبهر يرجع لموهبته العجيبة وذاكرته المميزة والتي ابهرت معاصريه. لقد ذهب إلى مدينة ري بعام ٣٨٠ ليتلمذ على يد صاحب بن عباد بعدما اكمل تعليمه فتم الإختبارات كي يثبت لمعلمه إنه أديب لامع فالتقي هناك بهجائين كأبن سكرة الهاشمي، وابن الحجاج الاحنف الكعبري، وابو دلف الخزرجي الرّحال المعروف ويبدو أن شخصية ابوالفتح الاسكندري وهو بطل مقاماته قد استوحيت منه. قال الثعالبي أن بديع الزمان كان يروي اشعار ابودلف وقد روي أحد اشعاره على لسان احد ابطاله (ويحك هذا الزمان زور/ فلا يغرنك الغرور - ((المقامة القريضيه)).

لقد ذهب إلى جرجان بعد ري ومكث لفترة لدي اسماعيليي جرجان إلى عام ٣٨٢ حيث ذهب إلى نيسابور حيث تغلب في مناظرات تفصيلية على ابوبكر الخوارزمي وهو أشهر مترسل بزمانه ونشر إسمه بمشارق ومغارب العالم الاسلامي وامضي سنين عدة بالترحال بين المدن والتقي بأمراء وكبار العلم ومن جملتهم خلف بن احمد في سيستان حيث استثمر شهرته هناك وهو الذي سبقته كتبه بنشر صيته. لقد استقر بهرات بالنهاية وتزوج وصار من اصحاب الأملاك وصار يراسل اهله بهمدان (نقل الثعالبي رسائله لابيه وابن اخته) لكن فجأة توفي بعام ٣٩٨ بالسم او السكتة. هنالك رواية أن بديع الزمان توفي في همدان ودفن بجانب ابوالعلاء القاري ببرج قربان.

قالوا بتشيعه (افندي اصفهاني، ج١: ص٣٦ - قمي ص١١٩) لكنه شافعي (سبكي ج٤ ص١٦٠) محب لأهل البيت ووفي للصحابة وعامل بالسنة ولديه ميول ضد المعتزلة ((المقامة المارستانيه)) ثعالبي ج٤ ص٣٠٨-٣٠٩ وقد شن هجوماً على اهل الحكمة والبيان ومع انه ايراني بلا شك ألا إنه لم يقل شعراً فارسياً ألا بالتلميع لكنه قد عرف بقدرته بالنقد والإنقضاض حيث لم يكن له مثيل بذلك.

خصائص اشعار حافظ الشيرازي:

- التشفير: ان التشفير قد حول أشعار حافظ الى بيت كله أسرار ورموز حيث أن أشعاره تشبه المرأة التي تعكس واقع حال قارئها وهذا بسبب وجود الرموز والعلائم الكثيرة بشعره.

- مراعاة الأصول الدقيقة ادبياً: هذا التناسب والأصول الذي يسمي بمراعاة النظير وهو مهم جدا باشعار حافظ.
- مطلع الأبيات المفعم والجيد: إن أسلوب مطلع الأشعار والغزل يدعو للتأمل فنظراً لموضوع ومحتوي شعر حافظ نري للمطلع لحناً خاصاً وجيداً إذ تبدأ بعض أشعاره بداية ملحمية وبعضها مازحة ومتعففة وهنالك مرات تكون حزينة ومتحسرة.
- السخرية: أسلوب حافظ المتعفف مدعم بالسخرية إذ أن السخرية زادت من قدرة البيان باشعاره وجعلت لها حرارة وطراوة إذ يبدأ بالبوح بما لا يقال بالسخرية الظريفة والدقيقة و ويطعن ويدمل الجراح بآن واحد.
- الإيهام والغموض: لأشعار حافظ إيهام وغموض وهذا الغموض زاد من جودة اشعاره حيث يقسم لفئتين:

أولاً: يسعي حافظ أن تكون أشعاره بأبهي حلّة ولأن الغموض جزء من الشعر الممتاز فإن حافظ إستغله أفضل إستغلال.

ثانياً: ولأن زمن حافظ كان مليئاً بالفتن فإنه إبتدع لغة خاصة لبيان قصده وبالإستعانة بالإيهام والسخرية إستطاع أن يبوح بما منع وأن لا يلبس نفسه فتنة تنتهي بضرره.

السخرية في مقامات الهمداني

لقد قيل الكثير حول شخصية ابوالفتح الاسكندري وما ليس فيه لبس أو شك إنها شخصية خيالية من إبداع بديع الزمان الهمداني وهو الذي أراد أن يكون لقصصه بطل يلجأعلي حسب عادات أهل زمانه لأسلوب الاخباريين وقد إختار بديع الزمان عيسي بن هشام ليكون راوياً لقصصه، إذ يجب أن يروي الأخبار والقصص البطولية التي وضعها بديع الزمان.

اذاً فقد خطر ببال بديع الزمان أن يكون هذا البطل من الاسكندرية الساحرة التي يبدو إنه كان منها أو إنه سمع قصصاً مشوقة عنها وكانت له معلومات تخصها. لهذا أختار اسم بطله ابوالفتح الاسكندري ومن الدلائل المشتركة لتسمية واوجه اشتراك المقامات والاسكندرية، هي ذكاء اهل المدينة و طبعهم المرح والمازح.

منذ أن اختار بديع الزمان بطل مقاماته وهو له حضور لامع ونشط بالمقامات إذ قلّما تجد مقامه لا تبدأ وتنهي بإسمه. هو خالق الضحكة بالمقامات وكل الضحكات والسخريات المبطنة بالألم والحزن تنتهي بإسمه. هو الماكر الذي يلجإ لكل حيلة كي يحصل قوت يومه ولا يموت من الجوع بهذا المجتمع الفقير. هو قائد جماعة الساسانيين بالمقامات. إن ابو الفتح الاسكندري رمز للشرور والضياع والفقر والخسران بالمجتمع. هو رمز للمستضعفين والبؤساء والمحطمين والمتسولين. بالجهة المقابلة هنالك عيسي بن هشام راوي المقامات وهو مثال للناس الطيبين والخيرين الذين يفضحون ابوالفتح دائماً.

تحليل السخرية واساليبها في مؤلفات بديع الزمان الهمداني وحافظ الشيرازي:

مع أن لحافظ موقف شديد في مواجهة كثير من الإنحرافات ألا إنه قلّما قيل عنه إنه مفكر أو مصلح. إنه يعرف الفساد والضرر جيداً فينقض عليه منتقداً كالجراحين، ومن ثم يخيط الجرح برفق وسلاحه الوحيد بهذه الحرب هو سخريته. إن تاريخ ايران بعد هجوم المغول كان محتقن ولا يمكن إلا للتلميح إن ينجد المعترضين.

"إنظر للصوفي كيف يأكل لقمة مشبوهة، لعل رباط ذيل هذا الحيوان النهم يطول"

(حافظ، ديوان، ٤٠٠)

"يا أيها المتسولون رعاكم الله وأعانكم، لا تتوقعوا أنعاماً من هذه الأنعام ! "

(حافظ، ديوان، ٢٤٥)

مع إن هذه الأبيات تظهر حس الضغينة الشخصية من الشاعر لكل من يقصده ألا إنه يجب القول إن تشابه هذه الأبيات مع الهجاء هي ببذائة القول والبيان المباشر فقط، لكنما الهدف واحد.

نظراً لما نري من فكر راق وبيان محكم بكل جوانب ديوان حافظ، لا يمكننا القول عن هذه الأبيات إلا إنها غليان للشرافة وعشق الحق لديه وهو ما تسبب بهذه السلاطة للسان وإن تأخذ سخريته منحي هجائياً قلّما نراه بأشعاره.

لقد إختار الدكتور على اصغر حلبي عنوان ((هجو الاشراف)) لهذه الفئة من أشعار حافظ (حلبي، ١٣٧٧: ٣٩)

إن حافظ استاذ بالغزل حيث يصل الغزل العرفاني باشعاره لأوج الجمال والرقة والبلاغة والفصاحة إلى جانب بساطة الشعر التي تميز حافظ وهو ما جعل من المستحيل تقليد اشعاره العظيمة. يهاجم حافظ المتظاهرين ويبضّع المرائين والزهاد والصوفيين بموسه ويوبخ كل الذين لا يلتزمون بالمعايير الإجتماعية.

لا نرى الهجاء بمعناه الحرفي بأشعار حافظ لكن السخرية تبرز بأبهي وأكمل حلّة هنا. يقول حافظ في ذم المرائين والزهاد درراً ننقل بعضها:

- إنني خادم للثمالى المخلصين الغير متلونين

لا اولئك الذين يلبسون الصوف بقلوب سوداء

- إن الثمل الذي لا يرائي وينافق

أفضل من ذلك الزاهد المليء بالنفاق

- أثمل لأن الذنب المحجوب عن الأغراب

أفضل من الطاعة المصحوبة بالرياء

- تعال للحانة وإشرب للثمالة

ولا تذهب لمحل العبادة لأن وجوههم مسودة

لحافظ هجمات عدة على أهل التّصوّف الذين يراهم منافقين ومرائين ومتلونين ويسعون لخداع المجتمع.

- كل اهل التّصوّف ثمالي وعشاق للجمال

لكن وقع الذنب على حافظ المسكين فقط

- نشر الصوفي زيه و بدأ الخداع

لقد صار يلف ويدور كالمغزل

- إنهض ودعنا نأخذ زي أهل التّصوّف للحانة

لناخذ كل غرورهم وعجرفتهم ونشهر بها

هنا يجب القول أن حافظ يقصد المتمثلين بالتّصوّف لا الصوفيين. اولئك الذين لبسوا زي التّصوّف فخدعوا الناس وبثوا عدم الثقة. هو يهاجمهم أشد هجوم ويعرضهم للسخرية والإستهزاء.

- يا أيها الصوفي إقطف وردة ومزق ردائك بشوكها

وتخل عن زهدك الفارغ من اجل الشراب والثمالة

- انظر للصوفي كيف يأكل لقمة مشبوهة

لعل رباط ذيل هذا الحيوان النهم يطول

- لأن الصوفيين منشغلين بالرقص والطرب

نحن ايضاً نحرك أيدينا تقليداً ومكراً

- إن الصوفي الذي تاب من الخمر بالأمس

رجع عن توبته عندما رأي باب الحانة مفتوح

إن السخرية في أشعار حافظ فاخرة وثمينة وإذا سخر بأحد وبث سم كلامه لنقده فهو ينوي خيراً و يفعل ذلك لهدف انساني نبيل يصلح المجتمع بالنهاية.

لا يقصد حافظ القذف والسب ولا يسعي لإضحاك القارئ بسخريته وإن كانت هنالك فكاهة باشعاره ما هي إلا فكاهة سامية متفكرة تأتي من الألم فتستقر بعمق الوجدان وتهدي النفس لعالم من الحلاوة وكي تحثه لتحليل المرارة والفساد بجو مليء بالسكينة وإن يرى على أقل تقدير صورة كلّية للقيم الأصيلة الإنسانية. إن حافظ صديق المجتمع وعدو النهمين الشرهين والامراء الظالمين واهل البطلان. لكلامه حقيقة تستقر بالقلوب وتؤثر بالقارئ بشكل مبهر وهو يقول:

- بحينا نبيع القلوب المنكسرة فقط

إن المأخور بذلك الإتجاه.

كذلك يفضح المتظاهرين الفاسدين. أما بالنسبة لاولئك الذين من المفترض ان يحفظوا

امن المجتمع لكنهم يقدمون برياء على اي فعل شنيع فهو يخاطبهم بسخرية حلوة ولاذعة:

- أيها القلب تعلم الحيلة من المفتش

إذ إنه ثمل ولا يثير الشك لنفسه

- لا تشرب الخمر مع المفتش لأنه

سيشرب معك ويكسر كأسك

- إثمل لأن الشيخ والمفتي والمفتش وحافظ

كلهم مزورون إن أمعنت النظر

يشن حافظ أغلب هجومه على المرائين، إذ لا يوجد تهديد أكبر من المزورين والمرائين للمجتمع ودائماً يضر الناس أشد ضرر من هؤلاء. إن حافظ يشبه المصلح الذي يهدف لنشر السكينة والعدالة بالمجتمع ويري كل جماعة تقف بطريق هذه الأهداف كأعداء للمجتمع ولا يرى مناصاً من فضحهم ولأنه شاعر تكون عداوته برقة! أو حتى بحرقة قلب وهذه الخصال التي جعلت حافظ محبوب ويحتل أعلي مكانة بتاريخ العدالة وحب الخير للناس. إن الكلام عن أساليب وطرق حافظ بالسخرية يطول مقامه وسنتكلم فيه بمؤلفات أخرى أن أسعفنا العمر.

نواع السخرية وأساليبها في غزليات حافظ

إن المضامين المستخدمة بسخرية في ديوان حافظ واساليب هذه السخرية واسعة بحد تجعل حافظ نفسه يستخدم أسلوباً لبيان عدة مضامين، وهذا ما يجعل من الصعب تقسيم اساليبه للسخرية على فئات ولهذا وبهذا القسم سيري القارئ أن التقسيم يختلف عما سبق قليلاً إذ سوف نقسم سخريات حافظ على حسب المضمون ومن ثم نحللها بشكل خاص.

تقسيم سخرية حافظ على حسب المضمون:

الف: هي سخريات تتضمن مواضيع عشقية ونراها ايضاً لدي الشاعر سعدي الشيرازي وهي تقسم على ثلاث فئات:

الأولى: يكون القائل هو المعشوق والمخاطب هو الشاعر إذ يكون للمعشوق صفات

عدة، بشرية ومن الجماد:

"لقد مر بجانبي بالأمس فقلت متي يحين العهد؟

فرد قائلاً لا تخطيء الظن إذ انه مضي"

(حافظ، ١٣٦٧: ٩٧)

أو:

قلت للمحبوب فلنتعامل واشتري قبلة منك

فضحك وقال منذ متي كان بيننا الإتفاق؟

(حافظ، ١٣٦٧: ٢٩٢)

الثانية: يكون القائل هو العاشق والمخاطب هوالمعشوق وهنا يكون المعشوق معنوياً حيناً وجسدياً حيناً آخر:

"كان قربك يبعد الموت عني

لكن الان ومنذ ابتعدت فسوف ياتيني"

(حافظ، ١٣٦٧: ٥٦)

أو:

" انت من ارباب الكرم بين الناس

لكنك بخيل على الغرباء"

(حافظ، ١٣٦٧: ٩٧)

نلحظ وجوداً أقل للفئة الثانية بالنسبة للأولي بديوان حافظ

الثالثة: يكون القائل هو الشاعر والمخاطب هم المنكرين والناصحين بالحب اذ يخاطب الشاعر نكرانهم بسخرية:

"قال لي ناصحي ماذا جنيت غير الهم من الحب؟

فقلت وهل من مكسب أفضل من هذا؟"

(حافظ، ١٣٦٧: ٥٥٠)

ب: ألسخريات التي لها مضامين إجتماعية وإنتقادية وسياسية واخلاقية:

هذه هي الفئة الرئيسية والأساسية للمضامين التي تعرضت للسخرية في ديوان حافظ لا بل هي أهم المضامين بكل فن السخرية. نري حافظ هنا يستهدف جموعاً خاصه يراهم قد أسسوا بنيان الظلم والمكر على الناس ولهم دور بعدم مراعاة النظام الاجتماعي وهم: المفتش والوعاظ وأهل التّصوّف من باعة الدين والعلماء بلا عمل:

"كل أهل التّصوّف ثمالي وعشاق للجمال

لكن وقع الذنب على حافظ المسكين فقط"

(حافظ، ١٣٦٧: ١٥٠)

"لقد رأيت بالأمس إمام المسجد وسجادته على كتفه

لقد كانوا يحملونه من الحانة على ظهورهم سكرانا"

(حافظ، ١٣٦٧: ٣٨٣)

"لقد صار المفتش شيخاً ونسي ذنوبه وصار يحكي بذنوبنا أينما جلس"

(حافظ،١٣٦٧: ٢٣٩)

اذا سأل عني إمام الجماعة قولوا له إن حافظ قد تطهر بالخمر

(حافظ، ١٣٦٧: ١٧٩)

نري حافظ ببعض الأحيان يجمعهم بوصف ((رفاق المدينة)) ويستهدفهم بسخرية ويفضح تعاونهم في خداع ونهب الناس:

"نعم أنا ثمل وفاسد ووجهي مسود من الذنب

لكن الحمد الله أن رفاق المدينة أتقياء"

(حافظ، ١٣٦٧: ٢٧٣)

إن القسم الأعظم من سخرية حافظ في ديوانه وألتي تشمل مضامين نقدية اجتماعية شديدة لزمانه يقع في إطار السخرية من النوع المذهبي.

أساليب السخرية في غزل حافظ

١. الدليل العكسي او عذر اقبح من الفعل: هو أن يأتي الشاعر بدليل يخالف العرف والعادات الاجتماعية وبهذه الطريقة يخرج كلامه من سياق الجد:

"لقد تبت على يد حبي بائع الخمر

ألا أشرب خمراً بعد اليوم بلا طرب"

(حافظ، ١٣٦٧: ٦٧٠)

لقد إستخدم حافظ هذا الأسلوب من السخرية بالمجال المذهبي وقد استعرض أبهي حلّة من حلل التعفف .

٢. الإيهام: يعد الإيهام من أهم الخصائص الأسلوبية لحافظ حيث استثمره بغية السخرية ويرجع السبب للمعني المتشابه ما بين الألفاظ والإختلاف بالمضمون وهذا من خصائص السخرية. هذه الإمكانية تتيح لحافظ البوح بما يريده بلا قلق من العذال.

"عندما قلت للمحبوب إحفظ لي قلبي

قال وما للعبد بالحفظ؟ الله الحافظ"

(حافظ، ١٣٦٧: ١٦٥)

((الله الحافظ))

١- حفظ الله قلبك

٢- وداعاً

"لقد مر بجانبي بالأمس فقلت متى يحين العهد؟

فرد قائلاً لا تخطيء الظنّ إذ إنه مضي"

(حافظ، ١٣٦٧: ٩٧)

ألعهد:

١- عهد العشق

٢- الزمان

٣. ألغموض أو محتمل الضدّين أو محتمل الوجهين: ((قد سمي بذو الوجهين إذ يقول الشاعر بيتاً له معنيين مدحاً وهجائاً))

(وطواط، ١٣٦٢:٣٦)

لقد قال الحكيم أن لا خطأ بنظام الخلقة

أبدع الله هذا النظر الذي لم يرى الخطأ"

(حافظ، ١٣٦٧: ١٤٢)

يمكن تفسير المصرع الثاني لمعنيين:

١- أن الحكيم لم يرى الخطأ بالخلق

٢- عظم سلطان الله وخلقه الذي لا يوجد به خطأ

٤. التعميم: هو حيث يعمم موضوع لعدة معان، نري حافظ بالأبيات التالية يضم نفسه بالعيوب مع مفسدي زمانه ومن حذاقته إنه يخاطب نفسه بحافظ اذ هو لقبه ولقب الحافظين للقرآن بصورة عامة:

"إثمل فإن الشيخ وحافظ والمفتي والمحتسب

كلهم مزورون إن امعنت النظر"

(حافظ، ١٣٦٧: ٢٧٢)

"لستُ الوحيد المهموم من قلة عملي

إذ ان العلماء كذلك من العلم بلا العمل"

(حافظ، ١٣٦٧: ٦٤)

٥. تجاهل المعارف: لقد إستخدم حافظ هذا الأسلوب بالسخرية التي تخاطب العاشق بلسان المعشوق.

"قلت له سأهجر الديار من ظلمك

فضك وقال ومن ربطك؟!"

(حافظ، ١٣٦٧: ٤٧)

"صرخت الآه من قلبي المجنون به

فتمتم قائلاً مجنون بمن؟!"

(حافظ، ١٣٦٧: ٩٤)

٦. الإستعارة العنادية ((التهكمية)) ((التمليحية)): هي ألا يجمع المستعار وألمستعار منه، مثلاً أن نسمي الجبان بالأسد وقد سماها القدماء العلاقة الضدّية وهي تهكمية تقع تحت خانة التلميح الساخر أو (IRONY). لقد عرّفت المعاجم هذه الكلمة بالإستهزاء والسخرية والقول العكسي ونوع من ال (Socratic Irony) أو التجاهل السقراطي.))

(حلبي،١٣٧٧: ٣٨)

"أحسن الله قلبك الرّحيم الذي

جاء للصلاة على من قتله"

(حافظ، ١٣٦٧: ٥٧٤)

كلمة ((أحسن الله)) تعني ((لعن الله)) و ((الرّحيم)) تعني القاسي

"لم يلبس حافظ هذه الجبة الملوثة بالخمر باختياره

فأعذره واصفح عنه يا شيخنا النجيب"

(حافظ، ١٣٦٧: ٨)

((النجيب)) تعني هنا ((المذنب))

السخرية في مقامات الهمداني:

منذ أن أختار بديع الزمان بطل مقاماته وهو له حضور لامع ونشط بالمقامات، إذ قلّما تجد مقامه لا تبدأ وتنتهي بإسمه. هو خالق الضحكة بالمقامات وكل الضحكات والسخريات

المبطنة بالألم والحزن تنتهي بإسمه. هو الماكر الذي يلجأ لكل حيلة كي يحصل قوت يومه ولا يموت من الجوع بهذا المجتمع الفقير. هو قائد جماعة الساسانيين بالمقامات. إن ابو الفتح الاسكندري رمز للشرور والضياع والفقر والخسران بالمجتمع. هو رمز للمستضعفين والبوساء والمحطمين والمتسولين. بالجهة المقابله هنالك عيسي بن هشام راوي المقامات وهو مثال للناس الطيبين والخيرين الذين يفضحون ابوالفتح دائماً.

سنمر على بعض من الإدوار الساخرة لأبو الفتح في المقامات. نري ابو الفتح بطل كل المقامات التي تتناول موضوع التسول فمثلاً نراه في المقامة ((القريضية)) وعند فضحه يقول ساخراً:

وَيحـــــك هـــــذا الزّمـــــانُ زور ... فَـــــلا يغُرّنّـــــكَ الغُـــــرورُ

لا تَلتَـــــزِم حَالَـــــةً ولكـــــن ... دُر بالليـــــالي كمـــــا تَـــــدُورُ

(عبده ١٣٧٥: ٩)

وفي المقامة البلخية حين يمشي في السوق يقول بصراحة ساخرة:

إنَّ لِلّـــــــهِ عَبيـــــــداً ... أَخَـــــذُو العُمـــــرَ خَليطـــــاً

فَهُـــــم يمسُـــــون أعـــــرَا ... باًوَيضـــــحُونَ بِنَيطـــــاً

(نفس المصدر:١٤)

في نهاية مقامه ((الساسانية)) نري الهمداني يعبر عن الزمان وغدره وشومه على لسان أبو الفتح الاسكندري:

هـــــذا الزمـــــانُ مشـــــومُ ... كمـــــا تَـــــرَاهُ غَشُـــــومُ

الحُمـــــقُ فيـــــهِ مَلِـــــيحٌ ... والعَقـــــلُ عَيـــــبٌ وَلُـــــومُ

والمَـــــالُ طيـــــفٌ ولكـــــن ... حَـــــولَ اللِّئـــــام يحُـــــومُ

(نفس المصدر:٩٥)

كل هذه السخرية والفكاهة تدور حول التسول وقبحة وحيل اهله وتعبر عن حال المجتمع الذي كان يرى الفقر يمزقه ارباً فكان لابد أن يتأقلم معه اذ كان واقعاً لامفر منه، فلاذ الناس بالتسول علهم ينالون ما يبغون.لقد كانوا يكيدون للطبقة الحاكمة والغنية. اذا

وكما ذكر سالفاً، يمكن اعتبار ابوالفتح قائداً للثوار والمتمردين الهادئين على حكم بنو العباس. هو أيضاً كان يريد تحصيل المال والثروة لكنه لم يوفق ابداً (قزيحة، ١٩٩٨: ٣٢٣) لشخصية أبوالفتح الساخرة والفكاهية حضور بكل المقامات الوعظية،المضيرية، الرصافية، الشيرازية، النيسابورية، الأهوازية، المملوكية، الخمرية، المارستانية، العلمية، الحلوانية، المجاعية و... لكنه لم يكن متسولاً فيها.

المضامين الاجتماعية والسياسية للسخرية في مقامات بديع

الف: التسول والتطفل

كما قلنا سابقاً، إن هدف الكاتب الساخر اصلاح العيوب الفردية والاجتماعية وعليه يمكننا القول قطعاً أن أهم مضمون في مقامات بديع الزمان والحريري والذي تم تناوله بكثرة هو موضوع السخرية والنقد الاجتماعي. إن موضوع التسول والفقر وقبح المنظر والذات وغرور المستغنين حديثاً والقضايا الادبية واللغوية وحياه الملذّات والمجون واختلاط كسب الحلال بالحرام والنفاق والرّياء كلها مضامين إجتماعية. لقد اشار بديع الزمان والحريري لأزماتهم النفسية والعقد الرائجة بزمنهم ايضاً وقد حللوها بدقة. لم يمر الأديبان على المسائل المذهبية ايضاً مرور الكرام وقد سخروا من المرائين والمتدينين ظاهرياً وضعيفي النفوس باطنياً ونراهم ببعض الأحيان يطرحون البحوث الكلامية والعقائدية بطابع ساخر فمثلاً نري ابو الفتح الإسكندري وهو بطل مقامات البديع فيي مقامه المارستانية مجنوناً ينقض على ابوداوود وهو من المتكلمين للمعتزلة وهو يشير ايضاً لتظاهر الناس بالجنون إذ اصبحت هذه صيحة زمانه وهو يعلم ذلك جيداً.

يقول السيد اندوهجردي بهذا المجال: لأن الكاتب الساخر ليس معزولاً عن المجتمع فيجب على عقائده وأفكاره أن تكون انعكاساً لمجموعة من العلاقات والقواعد والاحداث الاجتماعية. يرى بعض المحققين إن الظواهر الاجتماعية مجموعة من الظواهر الفردية وعليه، يجب فهم الأعمال والنفسيات الفردية لفهم التحولات الاجتماعية. إذا يجب الإنتباه أن المحيط الادبي ليس بمنأي عن المحيط الاجتماعي. ولا يجب أن ننسى أن الأفكار والرؤي تحسب كطبقة بالمجتمع والفكر المخيم على المجتمع إنما هو نتاج طبقة الاجتماعية الغالبة. يمكن القول بعبارة عامة أن عالم الأفكار والقيم والفنون والحقوق والسياسة ليس بمعزل عن

الطبقات الاجتماعية.

عند مطالعة تلميحات واشارات الساخرين وحتي من لجأ للهجاء يمكننا ان نري خط سير مجتمعهم الفكري وربما لهذا السبب قال عبيد الزاكاني: ((لا تستخفوا بالهزل، وكان يحترم أهل الهزل.)) (بهزادي، ١٣٨١: ٥١-٥٦) أن ظهور الفكاهيات والسخريات النثرية بالمضامين الاجتماعية بالأدب العربي لم تكن من إبداع ادباء القرن الرابع الهجري كبديع الزمان واتباعه من امثال الحريري ولكن بهذا القرن تم تأطير هذا النوع من الأدب والفن حتى صارت له قواعده حيث يمكننا القول أن الكتاب بهذا القرن كانوا يتناولون السخرية بهدف معين، وصاروا يتنافسون لتزيين مؤلفاتهم بهذه السخرية وعلي حسب آراء كثير من الأدباء العرب المعاصرين لا تخلو مقامات البديع من هذه المضامين.(الكك، ١٣٨٢:٦٦) وطبعا نري أحياناً أن تجتمع المضامين في مقامة واحدة.

هنا نتناول التسول وإظهار القدرة اللغوية والنقد الأدبي والإجتماعي والوصف والمدح والدين والتكسب وحيل اللصوص و ... في المقامات التي اضافة لما ذكر نري جانباً فكاهياً وسخرية قوية فيها. من البديهي أن مجتمعاً يعيش بفقر مدقع سيشهد تنامياً بالرغبة بالتسول فيه. فلا يوجد بعد الان حاكماً لائقاً بالمجتمع كي يلم الأدباء والشعراء حوله ولا يفتح باب مجلسه الفاخر إلا لعدة قليلة من ادباء "البلاط" وهذا ما يجبر الأدباء والشعراء على التسول والترحال بين المدن لكسب قوتهم.

لقد قلنا الكثير بمقالنا عن التسول رواجه بالقرن الرابع للهجرة، وهنا يجب أن نشير ونؤكد على أن الغالبية القصوي من ادباء العرب المعاصرين يصرون على أن مقامات البديع والحريري ترتكز على تسول حذرت بسببها بعض المصادر الإسلامية الناس من قرائتها.(قمي، ١٣٦٣:١٤١)

على كل حال فان التسول والتطفل هما احد المضامين المستخرجة من السخرية وفي هذا العهد(القرن ال٣ إلى ال٦ للهجرة القمرية) قد ولي هذا الأمر اهتماماً بالغاً. يمكن القول بصراحة إنه اذا نظرنا نظرة واقعية لهذا الجريان الفكري وضعناه امام ذاك المتنعم بكل النعم ورأينا اختلافهم الفاحش، عندها سنضحك من أعماقنا وبشدة ضحكاً مليئا بدموع آلام المظلومين او أن نبكي بكائاً فيه بسمة تعبر عن التناقض الخفي بالمجتمع.

إذاً وتبعاً لهذا الوضع الحاكم على المجتمع العباسي بالقرن الرابع والسادس للهجرة لا عجب أن نري بديع الزمان الهمداني والحريري وهم يتناولون هذا الجريان القوي والنافذ للمتسولين والمتطفلين من الشعراء والأدباء وأن يخصوهم بقسم لا بأس به من ما كتبوا وأنشدوا. يمكن القول أن مقامات بديع الزمان الهمداني والحريري قد عرفوا ما يليق بالسخرية والفكاهة بعصرهم وقد الفوا مقاماتهم بحسب هذا. على كل حال اذا قرأت وتأملت بمقامات الهمداني والحريري ستري شيخان متسولان وسط الناس وهم يحتالون عليهم ويجذبونهم بمكر كي يحثوهم على البذخ. هذان الشيخان يتلذذان من التلاعب بالكلام والمفاهيم ولهذا تراهم ببعض الأحيان يطرحون احجية بليغة كي يؤثروا أكبر تأثير بمن يخاطبونهم وأن يملؤا جيوبهم أكثر وأكثر. هؤلاء يستخدمون جمل ومصطلحات وتعابير أو الفاظ يرسمون البسمة من خلالها على شفاه السامع والقارئ، وهنالك لحظات يسبب كلامهم الرضي النفسي والراحة والسكينة لآلام المهمومين لفترة لا بأس بها.

لقد كان الفقر منتشراً بين الطبقات المتوسطة والضعيفة خلافاً للطبقات المرفهة المتنعمة و ولم يكن احد يميل للأدب ولهذا السبب شرع الأدباء لتأليف قصص كالمقامات لكي يصورا عدم تشجيع الحكام للأدباء في التأليف وأن يصوروا وضعهم المزري وترحالهم بين المدن و القري بقصد التسول من خلال اللجوء لأي مكر وحيلة.

اضافة لما ذكر، أن جمع الفقراء والمتسولين بالقرن الرابع لهم شعراء كبار من أمثال ابودلف الخزرجي، الأحنف العكبري، ابوالرقمعق الخرساني و ... حيث امضي ابودلف تسعون عاماً بالترحال والتسول بين المدن والقري. كان يرافق صاحب بن عباد ويؤمن له الأخير رزقه. هو منشد القصيدة الساسانية المعروفة المؤلفة من ١٥٠ بيتاً ومطلعها:

جُفُـــــونٌ دَمعُهَـــــا يجـــــرِي لِطُـــــولِ الصَّـــــدِّ والهجـــــرِ

(الثعالبي: ١١٧-١١٩)

لقد كان شاعراً رحّالاً ذو خلق مرح وحسن. كان الأحنف العكبري ايضا شاعر اشتهر ببغداد وقد اعتبره الثعالبي شاعر الساسانيين والمتسولين ووصفه بالمتسول الظريف. كثير من اشعاره تتناول وصف الفقر والذلة، وقد انشد فيهما عناوين مختلفة وتعابير منوعة وقد تفاخر بالفقر والذلة على الأغنياء. نرى في مقامات البديع أنه وبلهجة فكاهية وساخرة، ومن خلال

إظهار التسول تتم زلزلة أسس حكم العباسيين ويتم استهدافهم. لقد شرحنا اسباب التسول في القرن الرابع والان يمكن للقارئ أن يرى سبب إهتمام بديع البالغ بهذا الموضوع المضحك المبكي.

إن مضمون السخرية في موضوع التسول هو مواجهة إثنان وينهالوا على بعضهما بكل لفظ نابي قبيح لتحصيل دنانير معدودة (مقامة البديع). أو أن يتلون شخص بأي صبغة وخلال لحظة لتحصيل هذه الدنانير. ربما قد تأثر بديع الزمان في خلق هذه المضامين (الأدب الساخر والفكاهي في خدمة التسول) من اسلافه من الأدباء.

ب: مضمون القضاة ومدعي التديّن

ما نراه في هذه المقامة وهو دليل على السخرية الاجتماعية هو الإنتباه الحذق للقاضي لحاجة وفقر المتخاصمين إذ ان الإثنان يدفعون مبلغاً له للبت في قضية كيل بضاعة بينهما. هو يشهد خلال الأسابيع والأشهر حضور الكثير من أمثال هؤلاء الذين يريدون إتمام أمورهم بسرعة. ومن المحتمل أنه يعلم بالفساد الاخلاقي والاجتماعي للمجتمع اذ صار له هذا الأمر اعتيادياً كي يقضي على هذا النحو وعندما يذهب الدينار من يده يرسل في طلبهم مرة أخرى.

بديع الزمان وفي مقامة النيسابورية يعرض لنا صورة دقيقة من الفساد في السلطة القضائية وما بين القضاة إذ إنها صورة مضحكة ومبكية بآن واحد. يقول عيسي بن هشام إنه صلي جماعة في نيسابور وعندما فرغ مر عليه شخص جعل الراوي يسأل المصلي إلى جانبه: من هذا المتحنك عملاً بالسنة والمرتدي لقبعة القضاة؟ هل يوجد هنالك دليل أكبر من هذه الجمل على ظلم وفساد القضاة وطغيانهم وبيعهم لضمائرهم؟ هم يأكلون أموال الناس بالباطل، ويبذخون بأموال اليتامي والأوقاف ويبخسون حق الضعيف والفقير ولا يراعون حقاً للقربي ولا ذمة:

حَدَّثَنَا عيسَي بنُ هشَام، قَالَ: كنتُ بنيسابُور يومَ جُمُعَة، فَحضَرتُ المَفرُوضَةَ وَ لَمَّا قَضيتُهَا لجتَازَ بِي رَجُلٌ قَدلَبِسَ دَنَّيةً و تَحنَّك سُنّيةً فَقُلتُ بِمُصَلٍّ بجَنبِس: مَن هَذَا؟ قَالَ هَذَا:سَوسٌ لَايقَعُ إلاَّفِي صُوفِ الأَيتَام وَ جَرَادُ لَايقَعُ إلاَّعَلَي زَرعِ الحَرَام وَلِصٌّ لَاينقَبُ إلاَّ خَزَانَةَ الإوقَاف...

(محمد، ٣٠٥:١٤٥٦-٣٠٦)

يتناول بديع الزمان في المقامة الاصفهانية البعد الاجتماعي للسخرية وهناك يضحك على التصرف القبيح والمثير للإشمئزاز لأبوالفتح بالنسبة للمصلين ويقون بنقده. هذا هو أسلوب الحكايات في مقامات البديع إذ إنه يضحك ببلاهة ويعيد الكرة ويقص القصة بمضمون يرسم ابتسامة مرة على الشفاه. في هذه المقامة تبدأ السخرية عندما يعزم عيسي بن هشام على السفر من اصفهان إلى مدينة ري وهو ينتظر القافلة؛ فيحين موعد اذان الصبح وهو ما يجعله يهم بشوق لأداء الفريضة جماعة وهنا يستهزئ عيسي بن هشام بإمام الجماعة وكيف إنه يتظاهر بالصلاة ويسخر من إسلوبه بالقراءة، وكيف إنه اختار سوراً طوالاً

(لقد قرأ الفاتحة بلهجة الهمزة واتبعها بالواقعة) وبنفس الوقت يظهر قلقه من عدم اللحاق بالقافلة.

ان أكثر المسائل إثارة للسخرية في هذه المقامة وأوج القصة يأتي حينما قام شخص (ابوالفتح اسكندري) بعد الفراغ من الصلاة من بين المصلّين وصار يطلب -بأنواع المكر والحيل والتهم والتهديد من المصلين أن يلزموا اماكنهم. هو يقول:

مَن كانَ مِنكم يحبُّ الصَّحَابَةَ وَ الجَمَاعَةَ فَليعرِني سَمَعَهُ سَاعَةً. قَالَ عِيسَي بنُ هِشَامٍ: فَلَزِمتُ أرضِي صِيانَةً لِعِرضِي.

(المصدر السابق: ٦٣)

ثم يبدأ بالخطابة ويقول رياءً وتظاهراً إنه رأي الرسول(ص) بالمنام حيث علمه دعائاً كتبه ابوالفتح على اوراق عطره ومن كان يريده عليه أن يشتريه منه. يقول عيسي بن هشام ان الدراهم صارت تنهال عليه من كل اطراف المسجد حيث أنه احتار بدوره وتعجب من هذا الترحيب من الناس(الحمقي) لكن بالنهاية يتعرف عيسي بن هشام في هذه المقامة على صديقة الأديب القديم المتسول المعروف بالقرن الرابع وهو يقوم بعمله بهذا المسجد في اصفهان فيسأله: من أين تعلمت هذا المكر والتحايل يا ابوالفتح؟ فيبتسم ويقول: هؤلاء الناس ليسوا الا حميراً وما عليك الا أن تكون حذقاً لتركبهم وعندما تنال مرادك وتكون قد استفدت منهم جيداً ووصلت لشأن رفيع أهجرهم ولو بموتك.

في نهاية هذا الموضوع تجدر الإشارة إلى إنه السخرية بالقضاة ومدعي التدين والتلاعب

بهم اسلوب قديم اذ انه يمكننا ان نري مثيله بحكايات جحي الذي كان قبل البديع بفترة طويلة . لا يجب أن ننسي بأن المضامين الساخرة الاجتماعية لا تقتصر على المقامات التي تم ذكرها بل للبديع والحريري مقامات لها مضامين اجتماعية وفكاهية إلى جانب المضامين الاصلية وسنذكرها فيما يلي.

ج: بقية المضامين الاجتماعية و السياسية

يصور ويبين بديع الزمان الهمداني في مقامهالوصية، ظواهر الضحك والنفاق وما راج بعصره. إن ابو الفتح الاسكندري تاجر قديم يعلم إبنه أسلوب التسول والتطفل وهنا يمزج ما بين نصائحه الطيبة! وسخريته ويقول لإبنه: أَفهمتَهُمَا يا ابنَ الخَبِيثَة

في هذه المقامه يبدو بديع الزمان متاثراً بالمجتمع البخيل والمشجع للبخل إذ نري ابوالفتح يقول لإبنه: [ودَعنِي مِن قَولِهِم ((أنَّ اللهَ كريمٌ))] نعم إن الله كريم وهو يكثر من مالنا وثروتنا بلا أن ينقص من ما لديه وكرمه ينفعنا ولا يضره... نري ابوزيد وهو بطل مقامات الحريري وهو ينصح ابنه بالابتعاد عن الأعمال المحترمة كالوزارة والتجارة والزراعة وان يكتفي بالتسول فقط، اذ كله فائدة ولا ضرر فيه.

يشير بديع الزمان في مقامه الرصافية لحيل اللصوص المتعددة ويقوم بتعريف المجتمع اللص والمبتلي باللصوص بتلك الأيام. هنا يشرح بديع الفساد الاجتماعي في بغداد والحيل القبيحة والمثيرة ايضاً. في هذه المقامه قصة تخلو من العفة والحياء حيث لم يذكرها المرحوم الشيخ عبده بطبعته وهي موجودة بطبعة اسطنبول فقط. لأن الهدف هو الجانب المضحك لمقامات الهمداني فإن مؤلفي المقال ينقلون وبتلخيص قسماً مما ذكره السيد احمد زكي مبارك بكتابه:

إنه و بلليلة من الليالي رأي ابوالفتح شاباً كان بينهما فعل فاحش وهو يريد القفز في بيته فصار ابو الفتح يكلم زوجته بصوت عال يسمعه الشاب: إن في هذا البيت كنوز إن أراد شخص الظفر بها عليه ان يتخلي عن شرفه وعرضه فخدع الشاب من هذه الحيلة وفر مفضوحاً. قال ابو الفتح بالنهاية:

((وفتَّشَ الغُلَامُ البَيتَ، فَلَم يجِد سِوَي لَيتَ.)) (زكي مبارك: ٢٢٢)

يقول الكاتب ان لهذه المقامه سخرية ظريفة ومثيرة، وقد أعد حيل لصوص بغداد بالقرن الرابع للهجرة حتى صارت اكثر من سبعين حيلة. يقول السيد زكي مبارك بلحن ساخر وفكاهي: لا يتوقع القارئ مني أن أذكر هذه الحيل، إذ لا تنفع بهذه الايام فلا يتحسف أحد على عدم ذكرها. ان للصوص بأيامنا اساليب لو سمعها بديع الزمان لظن إن حيل لصوص بغداد ما هي إلا لعب وهزل طفولي! ومن ناحية أخرى فقد تغير اسلوب معيشة الناس بالنسبة لذاك الذي كان قبل ألف عام.

إن المقامه الساسانية ايضاً آية من آيات الجمال إذ علاوة على مضمون التسول تحتوي على مضمون اجتماعي ساخر خصوصاً عندما كان الرئيس يضرب صدره بصخرة وينشد اشعاراً يكررها مرافقوه:

أريـــــدُ مِنـــــكَ رَغيفـــــاً يعلُـــــو خُوَانـــــاً نَظيفـــــاً
أرِيـــــدُ مَـــــاءً بِـــــثَلجٍ يغشَـــــي إنَـــــاءً ظريفـــــاً

(مأمون، .... ٧٤-٧٦)

يبدو أن هذا الطلب البسيط وهو رغيف خبز وماء بثلج وإناء ظريف وباقي طلباتهم الأكبر تدل على الفقر المدقع الذي أجبر اناس ان يلوذوا بالتسول جموعاً، إذ هم مستعدون لأي شيء في سبيل حاجتهم.

يزور عيسي بن هشان بغداد وفي يوم من الأيام وهو يتمشي بجانب دجلة ويتمتع بالمناظر يواجه تجمعاً ((يشُقُّ الضِّحك أشَداقَهم (محمد، محيي الدين عبدالحميد: ١١١) فيقف كي يستمع، لكنه لم يستطع الإحتمال؛حيث كان يريد أن يرى من تجمع الناس حوله فيري الاسكندري وهو يرقص ويتقافز كالقرود فيشمئز منه ويستغرب من افعاله المضحكة ويقول الاسكندري كعادته كلاماً مضحكاً:

اَلـــــذَّنبُ لأيـــــامِ لَـــــالِي فَاعتَـــــب علـــــى صَـــــرفِ اللَّيـــــالِي
بـــــالحُمقِ أدرَكـــــتُ المُنَـــــي وَرَفَلـــــتُ فِـــــي حُلَـــــلِ الجَمَـــــالِ

(محمد، عبده: ٩٧)

آخر الكلام هنا هو: ان مقامات بديع الزمان تنتهي بفلسفة واحدة، هي الضحك

والسخرية من الدنيا وأهلها والنظر بفكاهة وإستهزاء بهم فمثلاً يقول بنهاية المقامه البصرية:

اَلفَقـــــرُ فِـــــي زمَـــــنِ الّئـــــا ... مِ لِكـــــلِّ ذِي كـــــرمٍ عَلَامَـــــة

رَغِـــــبَ الكـــــرَامُ إلى الّئـــــا ... مِ وَ تِلـــــك أشـــــرَاطُ القِيامَـــــة

(احمد، زكي مبارك، م.س: ٢٣٤-٢٣٥)

الإستنتاجات:

إن الجانب الاجتماعي والأدبي من أهم البنية الأساسية للسخرية في مقامات البديع والحريري. هذان الأديبان قد استعرضا كثير من المواضيع التي ابتليت بها مجتمعاتهما في قالب من السخرية والفكاهة. نري أن المقامات مشحونة بالصناعات الأدبية والبلاغية ونري سجع البديع الساخر الطف من الورد وهو إنعكاس لشخصيته المميزة. إن السخرية التي يبغيها البديع تخلو من السفاهة والعتة وقد إستغلها بحق بهدف اصلاح المجتمع حيث يمكننا أن نري هذا بجميع المقدمات للمقامات وفي بياناته ايضاً. إن البديع يبتسم بحكمة وألم للمجتمع في مقاماته، وهو لا يريد ان يصبح ابو الفتح اسوة لغيره حيث يتبعه القارئ بكل ما قال وفعل،إنما الموضوع عكس ذلك تماماً وهو يريد ان يعكس فقر الحال والمال والجوع والجهل للناس بعصره بأسلوب معكوس وهو أيضا يريد فضح أناس يستغلون كل فرصة كي يظفروا بالمال وكل هذا يدل على اوضاع المجتمع الغير سويةً.

يمكن فهرسة مضامين السخرية الاجتماعية والسياسية في مقامات البديع كما يلي:

- التسول والتطفل، وهذا مشهود بأغلب مقامات البديع وخاصة في مقامه الدينارية والساسانية والمكفوفية والبخارية.
- تستهزئ مقامات البديع بالقضاة الفاسدين، وتثورعليهم. فتارة تصب جام الغضب على هؤلاء وهم باعة الدين وتارة تخاطبهم بلين وإبتسامة وتظهر الرضي عنهم.

إن اساليب السخرية لدي الشاعران واحدة تقريباً، ألا أن مهارة وحرفية حافظ في تطبيق هذه الأساليب ووسع مضامينه الساخرة في غزله جعلت غزلياته بارزة أكثرمن غيرها.

قائمة المصادر والمراجع

١- بهزادي اندوهجردي، حسين، طنزوطنزپردازي در ايران، ١٣٧٨، الطبعة الأولى، تهران، صدوق.

٢- بهزادي اندوهجردي، حسين، بديع فنون وآرايشهاي ادبي، ١٣٨١، الطبعة الثانية، تهران، دانشگاه آزاد اسلامي واحد تهران مركزي.

٣- حافظ الشيرازي، شمس الدين محمد، ديوان غزليات، ١٣٦٧، تصيح پزمان بختياري، الطبعة الثانية، تهران، اميركبير.

٤- حافظ شيرازي، شمس الدين محمد، ديوان غزليات، ١٣٦٣، تصيح خليل خطيب رهبر، الطبعة الأولى، تهران، صفي عليشاه.

٥- الحلبي، على اصغر، تاريخ طنز و شوخ طبعي در ايران و جهان اسلام، ١٣٧٧، الطبعة الأولى، تهران، بهبهاني.

٦- وطواط، رشيد الدين محمد، حدائق السحر في دقائق الشعر، ١٣٦٢، تصيح عباس اقبال آشتياني، الطبعة الأولى، طهوري.

٧- عبده، محمّد، ١٣٧٥. مقدمه شرح نهج البلاغه، قم، نشر المكتب الاعلام الاسلامي.

٨- عبدالله بن عيسي اصفهاني، ١٤٠١. رياض العلماء وحياض الفضلاء، طبعة احمد حسيني، قم

٩- عباس القمي، ١٣٦٣. هدية الأحباب، ايران.

١٠- عبدالوهاب بن على السبكي، ١٩٦٤-١٩٦٨ طبقات الشافعية الكبري، طبعة عبدالفتاح محمد حلو ومحمود محمد طناحي، القاهرة ١٣٨٣-١٣٨٨.

١١- عبدالرحمان ياغي، ١٩٦٩. رأي في المقامات، بيروت.

١٢- عبدالملك بن محمد الثعالبي، ١٤٠٣. يتيمة الدهر، طبعة مفيد محمد قميحة، بيروت.